دور رجل الدين العثماني ابو بكر افندي في مدينة رأس الرجاء الصالح، جنوب إفريقيا

بعد وفاة "يان فان بوغيز" إمام مسجد النخلة "Palm Tree Mosque" الكائن في مدينة رأس الرجاء الصالح بجنوب إفريقيا عام 1846 شب نزاع حاد بين مساعديه على مسألة إمامة المسجد، فاستقر الرأي بالنهاية على ترقية "مامات فان دو كاب Mamat van de Kaap" من مساعد إمام إلى إمام. وكان مامات طويل الباع في أمور مسجد النخلة كما أنه شارك في معركة "بلاوبرغ Blaauwberg"[(1)]. وبالرغم من ملئ منصب الإمامة إلا أن الخلاف استمر بين الإمام المُعَيّن وبين مساعده "الحاج داني"[(2)]، وقد وصل النزاع بينهما في ستينات القرن التاسع عشر إلى حد أن منع أحدهما الآخر من العبادة في المسجد ورفع القضية إلى المحكمة العليا لمدينة الرأس.[(3)] أثارت هذه التطورات قلق أحد نواب برلمان مدينة الرأس[(4)] السيد "دو روبِ◌ِ◌◌ِ De Roubaix" الذي كان متعاطفاً مع مسلميها فرأى أن الحل الوحيد لهذه المعضلة يكمن في استدعاء مرشد روحي مسلم إلى المدينة من خارج جنوب إفريقيا.[(5)] وقد تطابقت هذه الفكرة مع فحوى الرسالة التي قدمها أئمة المدينة في 16 نيسان عام 1862 إلى النائب "دو روبِ◌ِ◌◌ِ" يطلبون فيها بعث رجل دين مسلم إلى المدينة من بلد مسلم كي يعلمهم مبادئ الإسلام وتطبيقه في الحياة، وكان تبريرهم لهذا الطلب أن كل مراجعهم الإسلامية مدونة بالجاوية وهي لغة حملها آبائهم من أرخبيل الملايو منذ أوساط القرن السابع عشر ولم تعد متداولة في منطقة رأس

---

[1] - معركة جرت عام 1806 بين الجيشين الهولندي والبريطاني، انتهت المعركة بعد عشرة أيام بهزيمة الهولنديين وعودة الحكم البريطاني إلى منطقة رأس الرجاء الصالح.

[2] - اسمه الحقيقي : دانيال ركليف Daniel Ryklief .

[3] - Davids, **The mosques of Bo-Kaap**, pp 119-120.

[4] - أنشأت بريطانيا في مدينة الرأس عام 1854 برلماناً ذات مجلسين تشريعيين (Bicameral Parliament).

[5] - Davids, **The mosques of Bo-Kaap**, p. 52.

الرجاء الصالح بسبب نسيانها مع الزمن.(6) وهكذا وُلِدت فكرة "استقدام مرشد ديني من الخارج" وأضحت مطلباً لكل من الأئمة والنائب على السواء، وفي هذا السياق اتصل النائب بالحكومة البريطانية عام 1862 التي اتصلت بدورها بالعثمانيين لتحقيق تلك الفكرة. هناك عدة أسباب جعلت البريطانيين يلجأون إلى الدولة العثمانية لمعالجة هذه القضية منها:

1) وجود علاقات ودية بين الطرفين نتيجة تحالفهما عام 1854 في حرب القرم(7) وتوقيعهما بعد انتهائها عام 1856 على "معاهدة باريس". وقد التزم السلطان العثماني في المادة الرابعة من هذه المعاهدة بتحسين أوضاع المسيحيين في جميع أنحاء امبراطوريته.(8) مقابل هذا الالتزام العثماني الرسمي أخذت الحكومة البريطانية على عاتقها بشكل غير رسمي الاهتمام برعاياها المسلمين بما فيهم القاطنين في مستعمراتها.
2) كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت مركز الخلافة الإسلامية.
3) سيطرة الدولة العثمانية آنذاك على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة .
4) كون الدولة العثمانية أقوى دولة إسلامية في تلك الفترة.
5) انقطاع الصلات بين مسلمي مدينة الرأس وأصولهم في أرخبيل الملايو.

تعطي هذه الأسباب تفسيراً لعدم استعانة حكومة لندن بمرشد ديني من دول أو مناطق إسلامية أخرى مثل أرخبيل الملايو الموطن الأصلي لغالبية مسلمي مدينة الرأس والغني بعلمائه والخاضع آنذاك للحكم الهولندي، أو من الهند التي كانت في طور الخضوع للنفوذ البريطاني الكامل بعد أن شهدت حضارة إسلامية عريقة.

---

[6]- Argun, Selim, **The life and contribution of the Osmanli Scholar, Abu Bakr Effendi, towards Islamic thought and Culture in South Africa,** MA Dissertation in Islamic Studies, Faculty of Arts at the Rand Afrikaans University, Johannesburg, 2000, p.36.

[7] - وقعت هذه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية عام 1853م واستمرت حتى 1856م. ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية في 1854م ثم لحقتها مملكة سردينيا، وكان من أسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم. انتهت الحرب في 1856م بهزيمة الروس وتوقيع اتفاقية باريس.

[8]- **Major Peace Treaties of Modern History, 1648-1967,** edited by Fred L. Israel, Philadelphia: Chelsea House Publishers, 2002, v.2, p. 949.

وتجاوباً مع الحيثيات البريطانية المذكورة بالأعلى صدر مرسوم عثماني في 3 تشرين الأول عام 1862 بإرسال العلامة "أبو بكر أفندي" إلى رأس الرجاء الصالح تلبية لطلب مسلميها على نفقة الحكومة العثمانية.

<u>من هو "أبو بكر أفندي"؟:</u>

أبو بكر أفندي رجل دين وعلامة كردي ضليع بالمذاهب السنية الأربعة. ولد عام 1835 في منطقة "شارة زوور" شرق مدينة السليمانية بكردستان العراق. تلقى تعليمه الابتدائي في منطقته ثم تابع دراسته الدينية في استانبول و بغداد. ويذكر أحد المراجع[9] أن نسل أبو بكر أفندي يعود إلى النبي محمد بينما ينفي مرجع آخر أي صلة لنسله بقبيلة قريش،[10] وهناك مرجع ثالث يجمع بين الرأيين فيفيد أن أبو بكر أفندي هو من أسرة أرستقراطية من قريش استقرت في كردستان[11] ولا يعطي هذا المرجع أي إشارة إلى الأصل الكردي لهذه الأسرة. ويبدو أن رأي المرجع الثاني هو أكثر قبولاً لأنه من المستحيل أن يكون شخص من العرق الكردي الآري مثل أبو بكر أفندي متصل سلالياً بالنبي محمد السامي العربي الهاشمي، أما رأي المرجع الثالث فهو ضعيف لعدم استناد صاحبه لأي قرينة تثبت ذلك، وبخصوص كلمة "أفندي" فهي لقب تركي وتعني السيد ولا صلة لها باسم العائلة أو الكنية. درّس أبو بكر أفندي في أحد مدارس مدينة أرضروم Erzurum[12] بعد أن هاجر إليها مع عشيرته إثر تعرض "شارة زوور" والمناطق المجاورة لها لغزو من قبل البدو. وفي أواخر أيام حكم السلطان عبد المجيد الأول قدم أبو بكر أفندي إلى استانبول لطلب العون منه للمساعدة في التغلب على المجاعة التي تفشت في منطقة أرضروم، وبينما كان هناك علمت الحكومة العثمانية بموضوع طلب المرشد الديني لمسلمي

---

[9] - هو:
Van Slems, A, “Abu Bakr Effendi”, **Dictionary of South African Biography**, Cape Town: Published for the National Council for Social Research by Nasionale Boekhandel, 1968-c1987 vol. 1, pp.4-5.

[10] - هو:.
Van Bruinessen, Martin, **Mullas, Sufis and heretics: the role of religion in Kurdish society: Collected articles**, Istanbul: The Isis Press, 2000, p. 133-141.

[11] - Mahida

[12] - أرضروم أو "أرض الروم" مدينة في شرق تركيا عاصمة محافظة أرضروم.

رأس الرجاء الصالح فوقع الاختيار عليه بسبب معرفته العميقة بالعلوم الإسلامية بالإضافة إلى حكمته اللافتة وذكائه المميز، فطُلِب منه الذهاب وقَبِل الطلب فشد الرحال إلى رأس الرجاء الصالح.[13]

وصول "أبو بكر أفندي إلى رأس الرجاء الصالح:

توجه أبو بكر أفندي ومساعده عمر لطفي أفندي من استانبول إلى جنوب إفريقيا عبر فرنسا و بريطانيا، فأبحرا من ميناء ليفربول Liverpool البريطاني في الثالث من كانون الأول عام 1862 وبعد 44 يوماً وصلا إلى مدينة الرأس.

اختلف المؤرخون في موضوع علم مسلمي مدينة الرأس المسبق بوصول أبو بكر أفندي ومساعده إلى مدينتهم،[14] فيذكر كل من Mahida و Davids[15] أن أحد الروايات تفيد أنه بعد مرور يومين من وصولهما حتى علم مسلمو مدينة الرأس بذلك وعندئذٍ أرسلوا وفداً لاستقبالهما مؤلفاً من وجهائهم بالإضافة إلى أئمة وحجاج المدينة، وقد أخذت حينها صورة تذكارية لهذه المناسبة وهي محفوظة في متحف التاريخ الثقافي لجنوب إفريقيا (South African Cultural History Museum) في مدينة الرأس. أما عمر لطفي أفندي فقد ذكر في محاضراته عن هذه الرحلة التي نشرت باللغة الانكليزية عام 1991[16] أن مجموعة من الأئمة والحجاج في مدينة الرأس كانوا على علم بتاريخ الوصول وكانوا في استقبالهما حين وصلا إلى مرفأ المدينة.

تزوج أبو بكر أفندي مرتين خلال إقامته في جنوب إفريقيا وانجب بنت وخمسة أولاد من زوجته الثانية السيدة "تاهورا سابان كوك Tahora Saban Cook" ابنة أخ المستكشف البريطاني جيمس كوك وقد سار الأولاد على خطى والدهم في مجال العمل الدعوي لمسلمي مدينة الرأس.

13- Argun, p.37.

14 - المصدر السابق ص 32

15 - "The Origins of the Hanafi-Shafi'i dispute and the impact of Abu Bakr Effendi (1835-1880)", in Yusuf da Costa & Achmat Davids, **Pages from Cape Muslim History**, Pietermaritzburg: Shuster & Shooter, 1994, p. 82.

16- Lutfi, Omar, **A travelogue of my journey to the Cape of Good Hope,** Cape Town: Al-Khaleel Publications, p. 13.

نشاطات أبو بكر أفندي البارزة في مدينة الرأس:

دوره في حل نزاعات المسلمين في مدينة الرأس:

كما مر معنا كان من أهداف استقدام أبو بكر أفندي إلى مدينة الرأس هو الرجوع لرأيه لحل النزاعات المتواصلة في مساجد المدينة:

حل قضية إمامة مسجد النخلة: أعتُمِد على رأي أبو بكر أفندي عام 1866 للفصل بين إمام مسجد النخلة ومساعده في قضية إمامة المسجد. ففي عام 1864 توفي "مامات" أمام هذا المسجد واستلم الإمامة مساعده "إسماعيل" وذلك حسب صك وضعه "مامات" خلال حياته لمنع مساعده الآخر "الحاج داني" من الوصول إلى مركز الإمامة، فما كان من الأخير إلا أن شكك في شرعية هذا الصك.وفي عام 1866 أحيلت القضية إلى المحكمة العليا في مدينة الرأس التي اتصلت بأبي بكر أفندي لإيجاد مخرج لهذه المعضلة. قدم أبو بكر أفندي رؤية لحل هذه القضية وقبلت بها المحكمة العليا معتمدةً على سمعته الطبيبة ومركزه ومكانته كمبعوث من السلطان العثماني لحل مشاكل المسلمين في مدينة الرأس. وبناءً على رأي أبو بكر أفندي اعتبرت المحكمة أن المساجد هي "أوقاف" حسب الشريعة الإسلامية لذلك لا يحق لأحد من عامة المسلمين أن يمنع أي فرد مسلم من الارتداد إليها، كما أكدت المحكمة أنه لا يوجد أي عرف أو قانون يعطي الحق لأي إمام في تعيين خلف له في المسجد،[17] وبالتالي لا يحق لمامات تعين إمام بواسطة صك مكتوب إلا أن المحكمة اعتبرت في هذه الحالة أن إسماعيل هو الإمام للمسجد مما حذا بالحاج داني بالنهاية بترك المسجد.[18]

حل نزاع قضية صلاة الجمعة في مسجد نور الإسلام: في عام 1867 برز خلاف في مسجد نور الإسلام بين المصلين والإمام. وكان إمام هذا المسجد الشيخ عبد الرقيب وهو أحد تلاميذ أبو بكر أفندي يقيم صلاة الجمعة بجماعة تقل عن أربعين شخص مما أثار حفيظة المصلين الذين

---

[17]- Argun, p.57-58.
[18]- Davids, **The mosques of Bo-Kaap**, pp. 121-122.

طالبوا بإزاحته عن منصبه. ولوضع حدٍ لهذا الإشكال عُرضت القضية على المحكمة العليا في مدينة الرأس، وهنا أيضاً أُخِذت وجهة نظر أبو بكر أفندي بالحسبان فأوصى لصالح الإمام عبد الرقيب ولم يجد أي خطأ في تصرفه،[19] فأقرت المحكمة هذه التوصية ورجحت كفة الإمام على المصلين بفضل رأي أبو بكر أفندي كما حصل في قضية مسجد النخلة قبل عام.

النشاط التربوي: بعد 15 يوماً من وصوله فتح أبو بكر أفندي مدرسة إسلامية للصبيان بتمويل من الحكومة العثمانية عُرفت باسم "المدرسة العثمانية"، وفي غضون 20 يوماً تسجل في فيها أكثر من 300 طالب، ثم فتح أبو بكر أفندي مدرسة إسلامية أخرى للبنات بإدارة زوجته. ومنذ تاريخ وصول أبو بكر أفندي لغاية عام 1912 كانت كل المدارس الإسلامية الموثوقة قد أنشئت إما عن طريقه مباشرة أو عن طريق أولاده أو تلاميذه.[20]

النشاط الفكري: كان لدى أبو بكر أفندي قدرة عالية في استيعاب اللغات فتعلم لغة الأفركانز بسرعة وألف كتاباً عن الفقه الإسلامي بهذه اللغة وبحروف عربية بعنوان **بيان الدين** أو "Uiteensetting van die godsdiens" بلغة الأفركانز، وفي عام 1877 نشرت الحكومة العثمانية هذا الكتاب في استانبول على نفقتها كهدية لمسلمي مدينة الرأس، وتُرجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية عام 1960.[21]

إعادة حجاب الرأس للنساء: أعاد أبو بكر أفندي فريضة لبس حجاب الرأس للنساء المسلمات في مدينة الرأس بعد أن أصبحت يقلدن الأوروبيات باللباس وبالسفور.

---

[19] - المصدر السابق، ص 55.

[20]- Argun, pp.63, 66.

[21] - بيانات النسخة الانكليزية هي كالآتي:

The religious duties of Islam as taught and explained by Abu Bakr Effendi a translation from the original Arabic and Afrikaans. Edited with an introduction and notes by Mia Brandel-Syrier. Leiden: E.J. Brill, 1960.

تحريمه لأكل الجراد البحري والسرطان: كان مسلمو مدينة الرأس يأكلون الجراد البحري فأصدر أبو بكر أفندي فتوى حرم فيه أكل هذا الحيوان البحري باعتباره من الخبائث.

إدخال عادة إعتمار الطربوش للرجال: انتشر بفصل أبو بكر أفندي اعتمار الرجال المسلمين في مدينة الرأس للطربوش (Fez) بعد أن كانوا يلبسون "تورنغ Toering" وهي قبعة قش مخروطة الشكل أو يلفون رؤوسهم بقطعة قماش قطنية حمراء اللون،[22] وقد استمر اعتمار الطربوش سارياً في مدينة الرأس حتى منتصف القرن الماضي.[23]

تحذير مسلمي مدينة الرأس من انحرافات بعض الأئمة: وجد أبو بكر أفندي تصرف بعض أئمة مساجد مدينة الرأس منافياً للشريعة الإسلامية فنبه المسلمين إليها مما وضع هؤلاء الأئمة في وضع محرج جعل معظم الناس يتجنبون حضور مجالسهم، ومن هذه التصرفات: طلب الإمام من مريديه إعطائه كل الفطرة ولحوم الأضاحي لأن الله لن يقبل تقديمهم لشخص آخر،[24] وإقامة الولائم لمدة أسبوع لكل أتباع الإمام عن روح أي شخص يتوفى.[25]

ظهور الإشكاليات المذهبية بعد قدوم أبو بكر أفندي:

اتهم بعض مسلمي مدينة الرأس أبو بكر أفندي بنشر المذهب الحنفي بدعم من الدولة العثمانية مكان المذهب الشافعي السائد بينهم.[26] فحل نزاعات المساجد كان يتم بنظر البعض حسب المذهب الحنفي، كما سرت أقاويل أن المدرسة العثمانية التي أسسها أبو بكر أفندي كانت تنشر المذهب الحنفي تحت غطاء المذهب الشافعي، واعتبر عدد من سكان مدينة الرأس الذين يتبعون المذهب الشافعي أن كتاب **بيان الدين** الذي وضعة أبو بكر أفندي وسيلة لبث تعاليم المذهب

---

[22]- Du Plessis, p. 49.
[23]- Argun, p.62.
[24]- Lutfi, p. 23

[25] - المصدر السابق، ص 24.

[26]- Davids, Achmat ,"The Origins of the Hanafi-Shafi'i dispute and the impact of Abu Bakr Effendi (1835-1880)", in Yusuf da Costa & Achmat Davids, **Pages from Cape Muslim History**, Pietermaritzburg: Shuster & Shooter, 1994, p. 82

الحنفي، وحتى تحريمه لأكل الجراد البحري والسرطان كان من وجهة نظر البعض مظهراً من مظاهر الفتاوى الحنفية.[27]

وقد وصلت درجة الاستياء من أفكار أبو بكر أفندي إلى حد تقديم شكوى ضده عبر إرسال وفد إلى مكة واستانبول، كما قام بعض مسلمي مدينة الرأس بتقديم عريضة إلى الحاكم البريطاني يطالبون فيها بترحيل أبو بكر عن مدينتهم، وغال البعض في تعصبهم للمذهب الشافعي فرفضوا تزويج بناتهم لرجال أحناف.[28]

وقد دافع أبو بكر أفندي عن نفسه ورد على هذه الاتهامات قائلاً :" أنا شافعي ولم أكن سوى ذلك. أنا أفندي أي سيد. لقد درست في بغداد حيث الكل شافعية أقحاح".[29]

أما قضية تحريم أكل الجراد البحري والسرطان فيذكر سليم أرغون Selim Argun[30] في أطرحته والتي دافع فيها عن أبو بكر أفندي وعن انجازاته في مدينة الرأس أن العديد من أئمة مدينة الرأس لم يكونوا آنذاك على علم ببواطن الفقه الإسلامي وما معارضتهم لأبي بكر سوى احتجاج لما اعتبروه تدخل في عرفهم وامتيازاتهم لأن المذهبين الحنفي والشافعي يعتبران هذين الحيوانين البحريين من الخبائث ويحرم أكلهما[31].

وفي عام 1881 تم إنشاء أول مسجد حنفي في مدينة الرأس، كما تم حل قضية الخلاف الشافعي الحنفي كلياً عام 1945 حين أسس مجلس القضاء الإسلامي عام 1945.[32]

---

[27] - المصدر السابق، ص 82، 97 - 99.

[28] - Davids, **The mosques of Bo-Kaap**, pp. 55.

[29]- Davids, Achmat ,"The Origins of the Hanafi-Shafi'i dispute and the impact of Abu Bakr Effendi (1835-1880)", p. 99

[30]-Argun, p.55.

[31] - في الفقه الحنفي أنظر:
الكاساني، أبو بكر مسعود بن أحمد. **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع.** الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتب العلمية، 1986.
www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=2026&idto=2099&bk_no=12&ID=560
في الفقه الشافعي أنظر:
الخطيب الشربيني. **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج.** الجزء الرابع، ص 298،
http://www.almeshkat.net/books/open.php?book=1178&cat=40

[32] - Davids, **The mosques of Bo-Kaap**, p. 56.

وفاة أبو بكر أفندي:

توفي أبو بكر أفندي عام 1880 عن عمر يناهز 45 عاماً ودفن في مقبرة "تانا بارو" حيث يرقد معظم رواد الحركة الإسلامية في جنوب إفريقيا، وقد عاد بعض من أفراد ذريته إلى تركيا وهاجر آخرون إلى كندا و أوستراليا و نيوزيلاندا، وما زالت كنية "أفندي" تشير حتى الآن إلى إسم عائلة معروفة في جنوب إفريقيا.